الوارث

من أسماء الله الحُسنى الوارث ، وهو أحد أسماء الله الحسنى التي وردت في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الوارث اسمٌ من أسماء الله الحُسنى ، ومعنى هذا الاسم الوارث هو الباقي ، لأننا في حياتنا الدنيا نعرف أنّ الذي لم يمُت هو الوارث ، ولأنَّ الله سبحانه وتعالى حيٌّ باقٍ على الدوام فهو الوارث ، كلُّ ما بيدك مصيره إلى الله .

قد تقول إنَّ هذا البيت ملكي ، هذا كلامٌ فيه مجاز ، البيت لله . . سُئل أحد الأعراب وهو يقود قطيعاً من الإبل لمن هذه الإبل ؟ قال : لله في يدي .

واعلم أيها المؤمن أن كل شيء تحت يدك من بيت ومَتْجر ومركبة وممتلكات ليست لك ، إذا أردت الكلمة الصحيحة التوحيديَّة التي ليس عليها مأخذ فقل كما قال هذا الأعرابي : لله في يدي .

بعض الأبنية يكتبون عليها الملك لله ، حينما تشعر أنَّ يدك على ممتلكاتك يدُ الأمانة ، وأنَّ يدك على مالك يدُ الأمانة ، فهذا الشعور يجعلك تتصف بنفسيَّة مَن سيحاسَب ، هذا المال وضع بين يديك مؤقتاً لينظر الله كيف تعمل وأنت مستخلفٌ فيه ، وقد أشار القرآن إلى

هذا المعنى فقد قال الله تعالى : ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد : ٧] .

أنت أمين صندوق مؤتمنٌ عليه ، والله مطّلعٌ عليك سيحاسبك وسيُنبِّئك بما عملت .

وكلُّ شيءٍ في حوزتك مصيره إلى الله ، وهو الوارث .

الوارث سبحانه وتعالى هو الباقي بعد فناء خلقه . . هذا المعنى نشعر به في حياتنا الدنيا ، ندخل إلى بيت في أعلى المستويات وصاحبه تحت التراب ، أولاده هم الذين يستمتعون الآن بهذا البيت ، فهم الورثة ، وإذا تابعنا نجد أنَّ أحفاده يرثون آباءهم ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فالوارث هو الباقي . .

حدثني رجل قال : إنسان من أهل العلم يملك مكتبة نادرة في بيته . له صديقٌ حميم رجاه أن يستعير كتاباً لليلةٍ واحدة فلم يوافق ، لأنَّ الكتاب أغلى عليه من أولاده ، هذا الصديق الحميم أقسم بالله العظيم إنَّه بعد موت هذا العالم رأى الكتاب في الحاوية ، كيف كان صاحب هذه المكتبة حريصاً على كتبه ، فلما مات أصبح الكتاب ملكَ أهله ، لم يعبؤوا به فألقوه في الحاوية .

الشيء بالشيء يذكر . . أتمنى على كل أخٍ مؤمن عنده مكتبة متواضعة أن يحرص حرصاً لا حدود له على تعليم أولاده لئلا توضع هذه المكتبة في مكان مهمل من البيت ، ولئلا تصبح يوماً من سقط المتاع ، فتلقى خارج البيت على نحوٍ ما ، حبب إليهم الكتاب ولا تجعلهم أعداءً له ، كثير من الأسر تجد أن المثقف فيها هو الأب وحده ، وكلُّ من حوله يناهضون الكتاب ، عوِّدهم أن يقرؤوا ، اجعل

القراءة أعلى متعةٍ في البيت ، إنَّ أرقى هوايةٍ يهواها الإنسان هواية القراءة ، لأنَّك بالقراءة تأخذ عصارة عقول النابغين ، عقل النابغ كلّه في مئة صفحة ، فإذا قرأتها اطلعت على خبراته ورشفت من رحيق عصارة عقله ، فأخذت الكثير .

عود على بدء . . الوارث هو الباقي بعد فناء خلقه ، وهو الوارث لجميع الأشياء بعد فناء أهلها فقد قال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم : ٤٠] .

تدبر معي هذه القصة التي تكاد تكون من نسج الخيال ؛ ذلك أنَّ أغنى أغنياء العالم سبائكه الذهبيّة يضعها في صناديق على مستوى غُرف ، وأنّ الغرفة لها باب حديدي ، وهذا الباب محكم الإغلاق ، دخل إلى غرفته يوماً وأُغلق عليه الباب خطأً ، وهو رجل لا يكاد يلقي عصا الترحال فظنَّ أهله أنَّه مسافر ، فمات من الجوع وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة جرح أُصبعه وكتب على الحائط بدمه : أغنى رجل في العالم يموت جوعاً .

نمضي معاً في رحاب قصة أخرى لكنها واقعية : رجل ركب ناقته ليقطع بها الصحراء ، فضلَّ الطريق ونفد طعامه وزاده وشرابه ، وأيقن بالهلاك ، ثمَّ لمح عن بعدٍ واحةً فأشرق في نفسه نور من الأمل ، هُرع نحو الواحة فإذا فيها بركة ماءٍ شرب منها حتى ارتوى ثم تولَّى إلى الظل ، حانت منه التفاتة فإذا كيسٌ إلى جانب البركة فسرَّ به سروراً عظيماً وهو يحسب أنَّ فيه خبزاً ليأكل ففتحه فقال : واأسفاه هذه لآلئُ . . ما قيمة اللآلىء في الصحراء . هو يحتاج إلى رغيف خبز لا يقدر ثمنه بمال الدنيا .

والإنسان ضعيفٌ أمام الله عزَّ وجلَّ ، كلُّ شيءٍ تملكه قد يتلاشى أمام شربة ماء ، وقد وصف الله تعالى نفسه بأنَّه الوارث من حيث إنَّ الأشياء كلَّها صائرةٌ إليه ، فماذا نفهم من قوله تعالى : ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾[الشورى : ٥٣] .

بيد من كانت الأمور حتى قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؟.. أجاب العلماء : بأنَّ الأمور كلَّها بيد الله دائماً ، ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾.. فقد قال تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٢٣] .

ولكنَّ أهل الدنيا الذين انقطعوا عن الله عزَّ وجلَّ وانطمست بصيرتهم يرون أنّ الأقوياء في الدنيا بيدهم الأمور كلها ، هم يعبدونهم من دون الله ، هم يرون أن الأقوياء بيدهم أسباب الحياة ، أما يوم القيامة فهؤلاء الذين انقطعوا عن الله عزَّ وجلَّ وتوهَّموا أنَّ الأمر بيد الأقوياء يرون أنَّ الأمر بيد الله عزَّ وجلَّ ، فأنْ يصير الأمر بيد الله يوم القيامة ؛ بمعنى أنَّ هذا الإنسان الجاهل كان يتوهَّم أنَّ الأمر بيد زيدٍ أو عُبيد ، أما يوم القيامة فلا يرى الأمر إلا بيد الله عزَّ وجلَّ .

يقول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد : ١٠] .

﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾.. بالمناسبة.. النبي عليه الصلاة

والسلام لم يُورِّث درهماً ولا ديناراً ، ولكن ماذا ورَّث ؟ ورَّث هذا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظٍّ وافر .

لذلك فالإنسان حينما يكون حظُّه من الدنيا مالاً كمال قارون نقول له : إنَّ الله أعطى قارون المال وهو لا يحِبُّه ، ثم سلبه منه فجأةً وما انتفع به ، فقد قال تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص : ٨١] .

وحينما يكون نصيبك من الدنيا كنصيب فرعون نقول لك : إنَّ الله أعطى الملك لفرعون وهو لا يُحِبُّه ، وسلبه منه فجأةً حينما غرق وقال : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ فما نفعه إيمانه هذا ولا نفعه ملكه . . في قوله تعالى :

﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٩٠] .

ولكنَّ الله إذا أحبَّك أعطاك في الدنيا من مثل ما أعطى الأنبياء ، فقد قال تعالى :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٢٢] .

فإذا كان نصيبك من الدنيا علماً صحيحاً ، معرفة بالله عميقة ، فكراً نيِّراً ، قلباً طاهراً ، استقامة على أمر الله ، عملاً طيِّباً ، إخلاصاً لله ، هذا الذي نال من الله عزَّ وجلَّ أكبر نصيب لأنَّه نال من ميراث النبي ﷺ .

ألا تسمع أنّ بعضهم إذا أرادوا الثناء على عالم يقولون عنه : هذا وارث محمَّدي . أي ورث عن النبي ﷺ العلم ، والحكمة ،

والعمل.. فينبغي أن يكون كلُّ واحدٍ منا وارثاً محمدياً ، يأخذ من ميراث النبي ﷺ وهو العلم.. إنَّ الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر .

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه مر بسوق المدينة فوقف عليها قال : يا أهل السوق ما أعجزكم ؟ قالوا : وما ذاك يا أبا هريرة ؟ قال : ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم ههنا ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه ؟ قالوا : وأين هو ؟ قال : في المسجد ، فخرجوا سراعاً ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا فقال لهم أبو هريرة فقد أتينا المسجد فدخلنا فلم نر فيه شيئاً يقسم! فقال لهم أبو هريرة : وما رأيتم في المسجد أحداً ؟ قالوا : بلى رأينا قوماً يصلون وقوماً يقرؤون القرآن وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام ، فقال لهم أبو هريرة : ويحكم فذاك ميراث محمد ﷺ . [رواه الطبراني في الأوسط إسناده حسن] .

قد يأتي إنسان من مكان بعيد ويستغرق منه الطريق ساعة ليحضر مجلس علم ، ليتلقى في المسجد بعضَ ميراث النبي ﷺ.. معنى ذلك أنَّه أخذ بحظٍّ وافر ، أخذ من ميراث النبي ﷺ .

سبحان الله.. جمال القرآن الكريم أنَّ الله عزَّ وجلَّ كلَّما أشار إلى شيء يعقِّب بجملة هي قانون محكم ، فقد قال تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص : ١٤] .

فلقد أعطاه حكماً وعلماً ، وهذا شيء ثمين وجميل .

أجل ، شيء جميل ، لكن ماذا قال الله بعدها ؟.. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.. فهذا قانون ، أي إذا أردت أن تنال علماً وحكماً كن مُحسناً ، ثمن العلم والحكمة الإحسان .

قال تعالى :

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد : ١٠] .

وقال أيضاً :

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ [الحجر : ٢٣] .

لذلك ينادي ربُّنا جلَّ جلاله يوم القيامة : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ . . فيجيب الخلائق جميعاً : ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ . . فقد قال تعالى : ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۖ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[غافر : ١٦].

إذا كنت في الدنيا على صلةٍ محكمةٍ مع الله عزَّ وجلَّ وهو راضٍ عنك وأنت محبٌّ له متفانٍ في خدمة خلقه فهذا هو الفوز العظيم ، أن يكون لك مكانٌ عند الله عزَّ وجلَّ فقد قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ [القمر : ٥٤ـ٥٥] .

واللهِ هذا هو الفوز العظيم ، هذا هو الفلاح ، هذا هو النجاح ، هذا هو التفوُّق ، هذا هو التألُّق ، هذه هي البطولة .

ليس من يقطع طُرقاً بطلاً إنما من يتقي الله البطل

في معجم تاج العروس : الوارث صفةٌ من صفات الله تعالى وهو الباقي الدائم بعد فناء خلقه ، وهو يرث الأرض ومن عليها ، إذا قلنا : يرث الأرض ومن عليها . . أو وما عليها ، للعاقل ولغير العاقل .

يجول في خاطري قصة سأرويها : رجل من أصحاب النشاطات

الصناعيَّة الكبيرة ، له ثروة طائلة جداً ، وقد رأيت قصره في بعض المدن الشمالية عام أربعة وسبعين وتسعمئة وألف ، في ذاك الوقت كان ثمنُه خمسةً وثلاثين مليوناً ، وتبلغ قيمته الآن عشرات الأضعاف ، وقد توفِّي في عمر الثانية والأربعين وكان مديد القامة ، دفن في قبرٍ ولعلَّه كان صغيراً فما اتسع القبر لقامته المديدة فاضطُرَّ الحفار إلى أن يدفعه في صدره ، فأصبح رأسه مع جسمه يشكِّل زاويةً قائمة وهو الذي يملك أفخم قصر في إحدى مدن الشمال ، بلاط أرضياته من الرخام الشفاف ـ الأونكس ـ وهو من أغلى أنواع الرخام ، لمن هذا المنزل الفخم ؟ لغيره ، وبعد غيره ؟ ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ .

معنى أنَّ يدك على كلِّ شيء يد الأمانة ؛ فهذا معنى هام جداً ، البيت مؤقَّت ، والمركبة مؤقَّتة ، والمتجر كذلك مؤقَّت كلُّ شيءٍ تحوزه يداك يدك عليه يدُ الأمانة ، يد الاستخلاف والله ينظر كيف تعمل ، وفي النهاية هذا كلُّه يؤول إلى الله عزَّ وجلَّ . . لأن الله عزَّ وجلَّ هو المالك الحقيقي ، وملكه أوسع أنواع الملكية ، إذا قلنا : الله هو المَلِك ، أو المالك ، مالك خلقاً ، ومالك تصرُّفاً ، ومالك مصيراً .

هو الذي خلق ، وهو المُتصرِّف ومصير كل شيء إليه ، فهذا هو المالك ، نحن نملك تملُّكاً مجازياً ، قد تشتري بيتاً وتؤدي ثمنه نقداً ، والبيت فخم وأنت لم تبن ، بل بني بيد غيره ، قد تنتفع به ، وقد لا تنتفع به ، إما أن تتركه وإما أن يتركك .

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾

[الأنبياء : ٨٩]

واللهُ عزَّ وجلَّ كما ذكرتُ من قبل سمح لذاته العليَّة أن يوازنها مع خلقه في عدَّة مواضع ، فمن هذه المواضع . . ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ . . في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون : ١٤] .

ومن هذه المواضع أيضاً : ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ . . في قوله تعالى :

﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾[الأنعام : ٦٢].

في بعض أجهزة الحواسب يقرأ الحاسب أربعمئة وخمسين مليون حرف في ثانية ، أما الحواسب الشخصيَّة التي بين أيدي الناس فهي تقرأ مليون حرف في الثانية ، هل هناك حسابٌ أسرع من هذا الحساب ؟ ومع ذلك ربنا عزَّ وجلَّ لعلمه أنَّه سيكون هناك حواسب ذات سرعات عالية سمح لذاته العليَّة أن يوازنها مع خلقه فقال : ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ . . هذا الذي يأخذ الحديد من فلزَّات الأرض ، ويجعله صفائح ويشكِّله على شكل مركبة ، وهذه المركبة تزوّد بمحرِّك وعجلات وأبواب وفرش وكهرباء وتكييف . . إلى آخره من المستلزمات ، هذه المركبة سمَّى الله سبحانه صانعها ـ مجازاً ـ خالقاً .

قال تعالى : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ . . فأقرب شيء أن توازن بين كلية صناعيَّة وكلية طبيعيَّة ، الكلية الصناعية حجمها كبير ولها صوت ، ومن أجل أن تنقِّي الدم من البول تحتاج إلى ثماني ساعات ، أما الكلية الطبيعية فحجمها كقبضة الكف فيها طريق طوله مئة كيلو متر

وتعمل بصمت تام وأنت مستلقٍ ، وأنت تمشي ، وأنت تركب ، وأنت نائم ، وأنت يقظ ، وأنت تحاضر في الناس وهي تعمل ، والدم يمرُّ في هذه الكلية خمس مراتٍ في اليوم يقطع طريقاً يزيد على مئة كيلو متر وأنت لا تدري ، وازن بين كلية طبيعيَّة وكلية صناعيَّة .

وازن بين آلة تصوير والعين ، آلة التصوير تريك الصور صغيرة ، أما عينك فتريك الأشياء بحجمها الحقيقي ، فتريك الجبل جبلاً ، وملوَّناً ، العين تدرك الفرق بين درجتين من ثمانمئة ألف درجة من لونٍ واحد ، فلو أخذنا لوناً واحداً وقمنا بتدريجه ثمانمئة ألف درجة فالعين السليمة تدرك الفرق بين كل درجتين ، ربنا عزَّ وجلَّ قال : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ . .

وازن بين الحاسب وذاكرة الإنسان . . فقد قال بعض العلماء : ذاكرتنا بحجم حبَّة من حبوب العدس ، هذه الذاكرة تتسع لسبعين مليار صورة ، الإنسان الذي يعيش سبعين سنة تقريباً مُخَزَّن في ذاكرته سبعون مليار صورة كلُّها جمعت في مكان مقدارُهُ حبَّة العدس ، فهذا خلق الله ، ولو نظرنا إلى أي أرشيف حوى ما حوى من إضبارات لوجدنا معلومات قليلة موضوعة في حجم كبير ، وتحركها بالغ الصعوبة ، هذه الذواكر الموجودة في الدماغ مفروزة ، ذاكرة سمعيَّة ، ذاكرة بصريَّة ، ذاكرة للمشمومات ، ذاكرة ألوان ، ذاكرة روائح ، ذاكرة أرقام ، ذاكرة وجوه ، وهذه الحيِّزات في الذاكرة في مكان قريب كثير الاستعمال ، وهناك مكان متوسِّط ، ومكان بعيد ، وهناك مكان تمحى فيه المعلومات ، إنّ الذاكرة وحدها من آيات الله الدالة على عظمته ، فوازن بين أرشيف ، أو دفتر ، أو حاسوب ، والذاكرة البشريَّة .

وازن بين الحاسوب والذاكرة البشرية ، وبين آلة التصوير والعين الطبيعيّة ، وبين كلية صناعية وكلية طبيعية ، وازن بين الأرض ومركبةٍ فضائيّة ، قال تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ .

وفي مجال الإرث كذلك فقد وازن ربنا عزَّ وجلَّ بينه وبين خلقه فقال : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ .

تحضرني قصة خلاصتها أنّ أحد الأشخاص في الشام ترك مبلغاً ضخماً يبلغ الألف مليون ، أحد الورثة نصيبه من هذا الميراث تسعون مليوناً ، فترك محلَّه التجاري وبدأ يسعى من دائرةٍ إلى دائرة ليأخذ براءات الذمَّة وينهي أمور الماليَّة والتركات ، وهو في زحمة العمل من دائرةٍ إلى أخرى ، ومن مكتب إلى مكتب ، ومن مستشار إلى مستشار ليحصل على هذا المبلغ الضخم البالغ تسعين مليوناً ، وفي أحد الأيام دخل إلى الحمام فوافته المنيَّة فيه قبل أن يقبض درهماً واحداً . . فهل هذا وارث حقًّا ؟ إنه لم يستطع أن يتنعَّم بمال مورِّثه إطلاقاً .

ومن الورثة من يستمتع بالمال عدد سنين ، وفي النهاية ما من وارثٍ إلا وسيموت ، لأنَّ كلَّ مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزَّة والجبروت ، الله عزَّ وجلَّ فهو خير الوارثين .

أصبح لدينا ثلاث موازنات : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ . . ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ .

أنت مع قصة أخرى مفادها أن إنسانا اشترى بيتاً مع أخته مناصفةً ، ودفع كلُّ طرفٍ الثمن بالتمام والكمال ، إلا أنَّ البيت سُجِّل باسم أخته لأنَّها هي المعنيَّة في الجمعيَّة التعاونيَّة ، وكان ثمن البيت في البدء خمسمئة ألف فأصبح ثمنه بعد حين ثمانية عشر مليوناً ، وتعمل أخته

في المحاماة ، فقالت له : لابدَّ من أن تأخذ مليوناً واحداً وأن تخرج إلى بيت آخر فالبيت باسمي ، فخرج منه لكن مرغماً . . فهي ذات قوَّة وتعرف دخائل القوانين ، فأخرجته بطريقةٍ ـ في ظنها ـ ذكيَّةٍ قانونيَّة ، وعنده أكثر من أربعة عشر ولداً فشردتهم بين أهل زوجته ، وأهله ، وبقيت وحدها في البيت . . وسارت عجلة الأيام مسرعة وأصيبت بمرضٍ خبيث في أمعائها وعانت منه شهرين ثم توفيت وأخوها هو وارثها الوحيد ، فرجع إلى البيت وأولاده معه واستأثر به ، فالله عزَّ وجل قال : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ .

أحد العلماء يرى أنَّ الوارث هو الذي ترجع إليه الأملاك بعد فناء المُلاَّك ، إذ هو الباقي بعد فناء خلقه ، وإليه مرجع كلِّ شيءٍ ومصيره ، وهو القائل إذ ذاك : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ وهو سبحانه المجيب : ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ .

إذا وقف أحدنا أمام سوق الحميديَّة وقرأ الأسماء على الصفِّين وغاب خمساً وعشرين سنة ، سوف يجد الأسماء كلَّها مختلفة ، فقد تسلّم هذه المحالَّ أشخاص جدد ، كل خمسين سنة تتبدَّل الأشخاص ويأخذ الورثة الجدد ، الأراضي ، والمزارع ، والمحال ، والبيوت من واحد إلى آخر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

يتوهم الأكثرون أنَّ لأنفسهم مِلكاً ، ينكشف لهم في ذلك اليوم حقيقة الحال أنَّ الملك ليس لهم لكنَّه للواحد القهَّار .

المؤمن يرى وهو في الدنيا ما سوف يراه جميع الناس عند الموت ، هذه هي بطولته . . والله لو كُشِف الغطاء ما ازددتُ يقيناً . . المؤمنون الراسخون الكِبار يرون وهم في الدنيا ما لو كشف الغطاء قبل

كشف الغطاء ، أما غير المؤمنين فهم هنا في الدنيا في أوهام وفي ضلالات ، أما إذا انكشف الغطاء فقد بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون كما في قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر : ٤٧] .

أؤكِّد ما قلته . . . إن بطولة المؤمن أنَّه يرى الحقائق قبل فوات الأوان ، يراها في الوقت المناسب فينتفع منها ، وأما كلُّ الناس فبعد فوات الأوان يرون جميع الحقائق قال تعالى :

﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩١] .

وقال تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] .

فطوبى لمن يرى أنَّ كلَّ ما في يديه مستخلفٌ فيه ، محاسَب عليه ، وأنَّ الله سبحانه وتعالى ينظر ماذا يفعل به ، لذلك يحاسب نفسه حساباً شديداً قبل أن يحاسبه الله تعالى ، أما الجاهل فهو الذي يظنُّ أنَّ الذي بين يديه ملكه وحصَّله بجهده وعرق جبينه ، فهو في هذا كقارون الذي قال : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص : ٧٨] .

قال تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ . . أي فهو يدّعي أن عنده خبرات

متراكمة ، وقد حصَّلت هذا المال بجهدي وبذكائي ، وبخبراتي ، وبمتابعتي ، وغاب عنه أنَّ الله سبحانه وتعالى وفَّقه ، وهناك من هو أذكى منه ولم يحصِّل هذا المال قال أبو تمام :

ولو كانت الأرزاق تجري على الحِجى هلكن إذاً من جهلهنَّ البهائم

فالبطولة أن ترى الشيء قبل أن تصل إليه ، أو أن تصل إلى الشيء بعقلك قبل أن تصل إليه بجسدك ، أن تعيش المستقبل ، فهذا كلُّه صائرٌ إلى الله عزَّ وجلَّ .

الإمام الرازي يقول : « **الوارث : مالك جميع الممكنات و هو الله سبحانه وتعالى ، ولكنَّه بفضله جعل بعض الأشياء ملكاً لبعض عباده ، فالعباد إنهم ماتوا وبقي الحقُّ سبحانه وتعالى ، فالمراد أن الذي يكون وارثاً هو الله جلَّ جلاله** » ، أي أنَّ الله عزَّ وجلَّ مالك الملك ، كل شيء يُمَلَّك هو مالكه ، وهبه لك ليمتحنك ، إذاً هو ملك الله في يدك ، وهذا الجواب أبلغ جواب .

وقال بعضهم : « **الوارث هو الذي تسربل بالصمديَّة بلا فناء ، وتفرَّد بالأحديَّة بلا انتفاء** » .

وقيل : « **الوارث الذي يرث بلا توريث أحد ، الباقي الذي ليس لملكه أمد** » ، وذكر بعض العلماء : « **أنَّ الوارث هو الباقي بعد فناء الخلق** » .

ويقول بعض العارفين : « **الوارث هو الذي تفرَّد بالأحديَّة بلا انتهاء** » ، أي : وارثٌ واحدٌ أحدٌ وليس له وارثٌ ، يرث كلَّ خلقه وليس له وارث ، وتسربل بالصمدية بلا فناء الذي لا يرثه أحد ، ولكنَّه يمنح من يشاء من عباده الولاية والمدد .

اسم الوارث ورد في مواضع عدَّة من كتاب الله ففي سورة الحجر قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ .

وفي سورة مريم قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ .

وفي سورة القصص قال تعالى :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص : ٥] .

فهنا معنى جديد.. إنَّ الأرض لله يورثها عباده الصالحين ، أحياناً الله عزَّ وجلَّ يورث الممتلكات لعباده الصالحين إذا استقاموا على أمره .

وفي سورة الأنبياء قال تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ .

النبيُّ عليه الصلاة والسلام من دعائه الشهير :

« **اللهمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا ، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا ، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا ، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا ، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا ، وَلا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا ، وَلا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا ، وَلا مَبْلَغَ عِلْمِنَا ، وَلا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لا يَرْحَمُنَا** » [سنن الترمذي] .

إذا فقد الإنسان بصره قبل أن يموت فمن ورث الآخر ؟ هو ورث بصره ، إذا فقد سمعه قبل أن يموت فهو ورث سمعه ، أما إذا استمتع ببصره وبسمعه وعقله وقوَّته إلى أن مات فهذه هي التي ورثته ، ومتَّعنا

اللهمَّ بأسماعنا ، وأبصارنا ، وقوَّتنا ، وعقولنا ما أحييتنا ، واجعلها الوارث منا .

وفي بعض الأدعية : إلهي! أنت الوارث للعباد ، المتجلِّي بهذا السرِّ لأهل الوداد ، أشرق على قلبي نور اسمك الوارث الدائم حتى أرى الكلَّ لك وأقبل عليك بقلبٍ هائم ، ورِّثني يا رب! علوم أنبيائك ، وأسرار أصفيائك ، ومواهب أهل سمائك ، ورثني أرض العبوديَّة في نفسي حتى أتكمَّل ، إنَّك على كلِّ شيءٍ قدير ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم .

ملخص البحث.. « **الوارثُ** » هو الذي يرث خلقه بعد فنائهم ، لأنَّه الباقي بعد فناء خلقه ، كلُّ شيءٍ آيلٌ إليه .

علاقتنا بهذا الاسم.. أن تشعر أنَّ الذي بين يديك ليس لك صائرٌ ، بل هو صائر إلى غيرك ، يدك عليه يد الأمانة ، وأنت مستخلفٌ فيه ، وعليك أن تحاسب نفسك حساباً عسيراً لأنَّ الله ملَّكك ما ملَّكك إلا لينظر ماذا ستفعل .

اسم الوارث يجعل علاقة الإنسان بما في يده علاقة الاستخلاف لا علاقة التملُّك .

اللهمَّ أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارض عنَّا ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمدٍ النبيِّ الأميّ وعلى آلهِ وصحبه وسلَّم .

* * *